الأخلاق في براديغم ترسندنتالي مع إمانويل كانط .

The Morals in Paradigm Transcendent with Immanuel Kant

الاسم واللقب: الوزاني خيرة* [1]

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ،جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة / الجزائر

البريد الإلكتروني : Akilaphilo@gmail.com

تاريخ الارسال : 2020/05/07	تاريخ القبول : 2020/06/10	تاريخ النشر :2020/06/30

الملخص :

تتناول هذه الدراسة قراءة في البراديغم الجديد للفعل الأخلاقي الذي أرسى معالمه الفيلسوف الألماني إمانويل كانط ، عندما ربطه بمبادئ متعالية تحرره من أي أبعاد مادية وميولات سيكولوجية شخصية ،محاولا بهذا النظر الفلسفي العميق تصحيح توجهات سابقيه في نظرياتهم الأخلاقية التي حسب تصوره قد سلكت دربا خاطئا ، ومن جهة أخرى سعى إلى إعطاء الأخلاق نزعة كونية وشمولية يحكمها العقل والواجب لا المنافع والرغبات ، ليصبح النظر للأخلاق بوصفها قانونا عقليا ثابت وهذا ما يضفي عليها طابع الكمال

الكلمات المفتاحية :الأخلاق ، الإرادة الخيرة ، الحرية ، الواجب ،الدين .

Abstract :

This study deals with a reading in the new Paradigm of the moral sc

behavour which was built by the German philosopher Immanuel Kant . He connected this behavour with Transcendent Principles that free it from any physical dimensions and personal psychology tendencies , trying by this deep philosophical view correcting the philosophical directions of its predecessors , which , according to their

* طالبة سنة ثانية دكتوراه ، تخصص ابستمولوجيا البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والاجتماعية والعاطفية / جامعة ورقلة .

perception , took the wrong path . In an other side , he sought to give morals a universal and a general tendency which ruled by mind and duty no benefits and desires , to view morality as a fixed mental law , which gives it the character of perfection .

Key words : morals – good intention – freedom – duty – religion .

تسجل الإشكالية الأخلاقية من أعقد وأصعب القضايا التي شغلت التفكير الفلسفي قديما وحديثا و تصدرت الكثير من الاهتمامات الفكرية فإذا أردنا تسليط الضوء على جدل المشكلة الأخلاقية في الفلسفة الأوربية الحديثة والألمانية بالخصوص سنجد الكثير من المشاريع التي تناولت المشكلة محاولة تبين حدودها وبناء أطرها ولعل أبرزها ما جاء به "إمانويل كانط " Immanula Kant(1714 . 1804) الذي يمكن أن نصطلح عليه المشروع "الأخلاقي الكانطي" كونه شكل نقدا وثورة على التصورات القديمة للمشكلة الأخلاقية وأسس براديغم جديد فيها وأقامه على الكثير من الأسس والمفاهيم التي شكلت دعامة أخلاقية مثل : الواجب ، الإرادة الخيرة وكذا الحرية ليس هذا فقد بل دعى إلى أخلاق متعالية وربطها بالمستوى الترسندنتالي* [2]ليدعي بها كونية فلسفته الأخلاقية التي لم يشار إليها في الفلسفات التي سبقته وهذا ما دفع إلى الاهتمام بهذا المشروع في الفترة المعاصرة للتتباين الرؤى حوله بين معارضة ومؤيدة مبشرة هذه الأخير بظهور الكانطية الجديدة ، كما لايفوتنا الذكر أيضا أنه أكد على ضرورة تلازم الجانب القيمي والأخلاق

*الترسندتالية Tranzendental :D ,Transcendental :F ,Transcendental :I
بمعنى **إعلائي أو متسامي** وهي محموعة المقولات أو التصورات القبلية التي هي خراج التجربة الحسية أي ليست مشتقة من الخبرة الحسية لكن ضرورية لكي تتم خبرتنا بالعالم الحسي المادي ومثال ذلك المفهومان القلبيان زمان ومكان . لالاند ، **موسوعة لالاند الفلسفية** ، المجلد الأول ، تر : خليل أحمد خليل ، إش : أحمد عويدات ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط 2، 2001، ص ص 1475 . 1476 .

باعتبار الدين حسب تصوره فكرة أخلاقية وإضفائه للطابع الجمالي عليها أيضا ، إنه لمشروع متعدد الأبعاد سعى إليه كانط من خلال هذه الفلسفة الأخلاقية ليكون بمثابة ثورة كوبرنيكية معتمدة على آلية النقد كدعامة لهذا المشروع وهذا ما يتمظهر في أطروحاته الفكرية وما تضمنته كتبه التي تعرض الأخلاق في صورتها الإلزامية وهنا نخص بالذكر كتابي " نقد العقل العمل العملي" ، و" تأسيس ميتافزيقا الأخلاق" مرورا بكتاب " نقد العقل النظري " و" نقد ملكة الحكم " التي حملت في طياتها هي الأخرى جملة من الركائز القيمية التي لا تخلو من النقد والتحليل، كل هذه المعطيات هي التي دفعتنا إلى وضع فلسفة كانط الأخلاقية محل اهتمامنا كمحاولة منا قراءتها بالوقوف على مرتكزاتها بتحليل مفاهيمها ودراسة أبعادها والكشف عند حدودها وأطرها من الناحية النظرية والتطبيقية ، بناءا على هذا يمكن أن نطرح إشكالية محورية متبوعة بمشكلات فرعية مفادها :إلى أي مدى يمكن الأخذ بالنظرية الأخلاقية الكانطية في الفلسفة الخلقية و إلى أي مدى يمكن تحقق هذه الفلسفة الأخلاقية على أرض الواقع دون قيود الزمان والمكان ؟

ـ ماهي المنطلقات التي بلورت فلسفته كانط الأخلاقية؟

ـ كيف وظف كانط النقد في تأسيس فلسفة أخلاقية ؟

. ماهي مبادئ الأخلاق الكانطية وعلى أي أساس اختار كانط الإرادة الخيرة ومفهوم الواجب والحرية كدعامة لفلسفته الأخلاقية وما العلاقة بينها ؟

✓ المنطلقات التي بلورت فلسفته كانط الأخلاقية :

إن الحديث عن المرتكزات التي انطلق منها كانط في تأسيس فلسفته الأخلاقية يستوجب علينا الإشارة إلى تأثر كانط بالفكرة الأفلاطونية القائلة

بوجود حقائق قبلية لا تستمد من التجربة [3] ، هذا جعله يتطلع للتكفل بالكشف عنة حقيقة التصورات العقلية المحضة المستقلة والمتعالية عن كل ماهو مادي ،وبالتالي نظر إلى وجود الملكات عقليات السامية التي ستأخذ مصطلح محوريا في الفلسفة الكانطية فيما بعد وهو" التسرندتالية .

بالمقابل من هذا كان لأفكار نيوتن في قوله بالمبادئ العامة التي تحكم نظام الطبيعة بالغ الأثر في بناء نظرية المعرفة الكانطية التي جمعت بين المذهب العقلاني في الفلسفة النظرية و المذهب التجريبي في الفلسفة العملية [4]. **ليكون كانط مركبا بارعا فنقل فكرة نظام الطبيعة إلى الأخلاق وجعها تقوم هي الأخرى على مبادئ وقوانين مماثلة لعالم الطيعة ،من خلال هذا نستشف أن فلسفة كانط لم تكن أصيلة بل تكونت متأثرة ومتشيعة بالإرث الفكري والفلسفي الكلاسكي ومأثرة بها في التوجيه العام والخاص وسنقف على عمق هذا التأثر في مراحل لاحقة من التحليل .**

كما لا تفوتنا الإشارة إلى المؤثرات الخاصة التي ساهمت في بلورة هذا التوجه الأخلاقي وهو خضوع كانط لتربية متدينة وعقيدة لوثرية تجعل من الإرادة محلا للدين لا للعقل ، كما وضعت أمه في نفسه أول بذور الخير فجعلته يعتقد بوجود الله ويؤمن بوجود القيم الأخلاقية المطلقة .[5] هذه التربية الدينية والبيئة المتعبدة التي تعلي من شأن الجانب الروحي وتضع

[3] محمد عبد الله الفلاحي ، نقد العقل بين الغزالي وكانط ـ دراسة تحليلة مقارنة ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1،2003 ، ص 174.

[4] المرجع نفسه ،ص 173.

[5] ويل ديوارنت ، قصة الفلسفة ، تر: فتح الله الشعشع ، مكتبة المعارف بيروت ، ط4 ،1979،ص370.

الأعمال فوق الاعتقاد وتشيد للالتزام هي التي دفعت بكانط إلى الميل الأخلاقي والشعور بالواجب وتأيده .

بالمقابل من هذا تعلم من "رسو "شعوره العميق بالضمير الموجود في وجداننا بدون شك، وتعلم منه تبجيل الإنسان والمساواة أمام المجتمع والقانون.وبالتالي إعادة النظر في المبادئ الفطرية الخالصة والمتحررة التي يقوم عليها السلوك الأخلاقي،بالإضافة تأثير الفلاسفة التجريبين على رأسم "هيوم " الذي كان اعترف به كانط شخصيا على نحو صريح ومباشر عندما قال أن هيوم قد أنقضني من سباتي العميق حين قضى عل الدغمائية التي كانت تسيطر على الفكر الكانطي وجعله يرى المعرفة من زاويتها العقلية والتجريبية معا .[6] وبهذا يكون هيوم قد صحح توجه كانط في بناء وتحديد الحدود المعرفة الإنسانية التي أعاد كانط صياغتها في نظرية المعرفة بوصفها ليست صادرة من العقل وحده بل مستخلصة من التجربة أيضا هذه الالتفاتة الإبستمولوجية هي التي حددت مسار التوجه الأخلاقي الكانطي وهذا ما سنكشف عنه في مراحل لاحقة من التحليل .

ويمكن إجمال المنطلقات التي أسست فلسفة كانط في صورتها المتكاملة البيئة الخاصة والدينية بإضافة إلى بيئة عقلية تمثلت في عقلانية الأفلاطونية وميكانيكا نيوتن وفلسفة روسو وتوجهاته باختصار جملة الإرث الفلسفي الكلاسيكي، كل هذا شكل صدى في التوجه الكانطي وساهم في بناء قاعدة لفلسفة نقدية محورها كل ما هو أخلاقي الشيء أضاف عمقا وتميزا على مجمل قناعاته الفكرية.

- ✓ **النقد الكانطي كقاعدة لبناء نظرية أخلاقية :**

[6]. محمد عبد الله الفلاحي ، نقد العقل بين الغزالي وكانط ، ص 178 .

إن اعتماد كانط على آلية النقد في تحديد أطر السلوك الأخلاقي لم يكن عشوائيا ، كونه الوسيلة المناسبة لفحص معارفنا وخبراتنا ووضعها في قوالبها المناسبة دون تدخل أي مؤثرات وميولات ذاتية وهو بمثابة العين الفاحصة التي تجعل العقل يرى المعرفة من أبوابها الواسعة فكان مشروعه النقدي واضحا في الثالوث النقدي Three critiqueالسالف الذكر الذي استهدف نقد التصورات والفلسفات القديمة و تأسيس توجه جديد مناهض لكل ما هو دغمائي، فضلا عن تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق بحيث تناول كل واحد منهم البحث في الأخلاق بطريقة خاصة كمحاولة تحديد أبعاد السلوك الأخلاقي وبيان أطره .

وفي هذا المذهب الأخلاقي الجديد ركز كانط على نقد التصور الكلاسيكي لفكرة للسعادة الشخصية التي تحصر الخير في اللذة والمنفعة ، هذا ما عارضه وبشّدة كون هذه الرؤية عاجزة عن استخراج قانون كلي ضروري في الأخلاق ، وراح يبين حدود السعادة في السلوك الأخلاقي وأنها ليست خيرا أسمى إلا بقدر اتفاقها والسلوك الإنساني ، هذا التنظير لمفهوم السعادة يتجرد من قيود الميول والأهواء ، ويستبعد اللذة والمنفعة لتصبح السعادة غاية قصوى لأفعال الإنسان الإرادية.[7] وبهذا يكون كانط يدعو إلى التحرر من الدوافع التجريبية عندما رفضه للتصور الكلاسيكي للسعادة في تحديد الفعل الأخلاقي وصياغة قوانينه،كونها تخرج السلوك الأخلاقي من حدوده المألوفة من جهة ومن جهة أخرى أنه يختلف كل الاختلاف عن السلوكات الإنسانية التي تكون نتاج مؤثرات على العكس من هذا نجد السلوك الأخلاقي

[7] يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، مكتبة الدراسات الفلسفية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، د(س) ، ص 247 .

يتجرد من كل هذا ولا يمكنه ربطه بالحالات المزاجية الذاتية المتقلبة فهذا هدم لأساس الأخلاق .

رفضه لمحاولة تصورات " كريستيان فولف "(christian wolf(1679 1754_في فلسفته الأخلاقية التي قدمها في الجامعات الألمانية آنذاك عند تأسيسه الأفعال الإنسانية على المصلحة الشخصية أو ما سماه الحكمة العملية ، هذا الأخيرة التي تتعارض مع مشروع كانط في الأخلاق فوقف على حقيقة هذا البعد السيكولوجيفي حدود الشخصية لفلسفة فولف الأخلاقية مصرحا :

" أنه لما كان ينبغي أن تكون الحكمة حكمة عملية عامة ،فإنها لا تمتلك الإرادة من أي نوع خاص تقريبا من قبيل تلك التي تحددً دون أية دوافع أساسية تجريبية من مبادئ أولية تماما و هو ما يمكن للمرء أن يسميه إرادة خالصة بل أشارت إلى تأمل الإرادة بشكل عام مع كل الأفعال والشروط التي تصل إليها في هذا المعنى العام " [8] يمكن أن نقول أن كانط رفض فلسفة فولف الأخلاقية رغم أنها لمحت إلى مفهوم الإرادة العامة لأنها أخطأت طريقها عندما أسست الأخلاق على نحو ذاتي ينطلق من قواعد تجريبية بعيدة كل البعد القوانين كمبادئ أولية كلية شاملة لنكتشف أن كانط قلب الموازين وربطها بالقدرة الكلية الشاملة وهي مبادئ عقلية ثابتة،لأن ربطها بمبدأ ذاتي هو تمدير لطبيعة الفعل الأخلاقي وقضاء على مصداقيته وهذا ليس فلسفة أخلاقية حسب التصور الكانطي وذلك لعدم توفير الشروط اللازمة في تكوين الفعل الأخلاقي .

[8] إمانويل كانط ، أنطولوجيا الوجود، تر: أحمد عبد الحليم عطية ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، د (ط) ، 2009 ،ص 412 .

بعد الوقوف على الأسس التي انطلق منها كانط ناقدا قصور المحاولات السابقة للتصورات السابقة للفعل الأخلاقي في بناء السلوك الأخلاقي ، هادفا إلى عرض توجهه الذي بنى به فلسفته الأخلاقية ، انطلاقا من كل هذه المعطيات يمكننا أن نتساءل عن المبدأ الجديد الذي تتأسس عليه الأخلاقية الكانطية .

✓ **مبادئ الأخلاق الكانطية :**

كما سبق وأن ذكرنا أن كانط انطلق في تأسيس توجهه الفكري والأخلاقي على وجه الخصوص من نقد نظرية المعرفة وإعادة النظر في مفهوم التجربة التي نظر إليها نظرة نقدية مقرا بعجز التجربة في تأسيس المبادئ الأخلاقية ، فإذا كان قد صرح بعجزها فما هو أساسها إذن ؟وما هي المبررات والدوافع التي أدت به إلى قلب الموازين في الفلسفة الأخلاقية من خلال هذا الطرح الجديد؟

✓ **التجربة عاجزة عن وضع المبادئ الأخلاقية :**

لقد أعطى كانط للتجربة بعدا أخلاقيا لأفعال الإنسان كون التجربة التي يقصدها ليس لها بعد عملي كما تعودنا بل التجربة الإنسانية التي تربط الإنسان بعالمه الخارجي وما فيه من أشياء من خلال معرفته وإدراكه له إدراكا أخلاقيا فربط تلك المعرفة بمفاهيم عقلية خالصة مثل : الله ، الوجود ، الحرية [9]، إن المفهوم الجديد للتجربة الذي أسس له كانط هو مفهوم عقلي خالص يتجرد من كل مادة وهذا ما يعطيه طابع الكونية والكلية فالشمولية كما أن تأسيس الأخلاق على مفاهيم عقلية دليل على أنها

[9] يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ،ص246 .

تتموضع في قوانين لا قواعد تتداخل فيها المؤثرات كالبيئة وعوامل الوراثة وهذا هو الحد الفاصل بين السلوك الأخلاقي والسلوكات الإنسانية الأخرى هذا هو البراديغم الجديد الذي جاء به كانط في الفلسفة الأخلاقية عندما أسس لمتافيزيقا الأخلاق متجاوزا بها الميتافيزيقا التقليدية .

وهذا ما صرح به في كتابه مقدمة" لكل متافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما " تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق بأن العناصر التجريبية غير صالحة لبناء المبادئ الأخلاقية كونها تضر بنقاء

الأخلاق وأن الإرادة الخيرة هي المبدأ المطلق الوحيد الذي يمكن اتخاذه معيار حكم على القيمة الأخلاقية كونه مستقل عن جميع المؤثرات[10] ، نتوصل من خلال هذا الموقف إلى إلغائه للتجربة في صناعة الفعل الأخلاقي وهذا الأخير لا يصدر عبثا من العقل الكانطي بل كان نتيجة لأسباب مدروسة النتائج بالضرورة والتي يمكن أن نحصرها في أن ربط التجربة بالأخلاق يضفي عليها النسبية والتغير ويربطها بالمنافع والرغبات الذاتية فيبعدها عن الكونية والشمولية فالمطلقية وهذا ما حاول كانط محاربته في مشروعه الأخلاقي في صورته الجديدة .

فالرفض الكانطي للتجربة في بناء السلوك الأخلاقي يحيلنا إلى الحديث عن مبدئها وفق تصوره سنجده ما اصطلح عليه" **الإرادة الخالصة** "كونها ليست موضوعا تجريبيا بل مفهوم عقلي خالص وهذا ما صرح به كانط " **إن متافزيقا الأخلاق يجب أن تبحث في فكرة ومبادئ إرادة خالصة ممكنة ،لا تبحث في أفعال وشروط الإرادة الإنسانية بشكل عام وذلك لأن الإرادة الخيرة**

[10] إمانويل كانط ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، تر: محمد فتحي الشنيطي ، دار موفم للنشر، الجزائر ، 1991، ص253.

هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعد خيرا في العالم " [11]، من خلال هذا التحليل نستنتج أن كانط يبحث عن أخلاق تقوم على مبادئ عقلية مطلقة مشتركة في تكوين أحكامنا الأخلاقية العملية وهذا ما يعطيها نزعة شمولية كونية ويقيدها بالثبات ،هذا المبدأ هو العقل الذي يشرع للأوامر والقانونين في صورتها المطلقة .

تتمظهر محاولات كانط في صياغة قانون أخلاقي ورسم حدوده في كتابي" تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق " ونقد العقل العملي "عندما كشف عن المبدأ القبلي الذي يجب أن يحكم الفعل الأخلاقي وينظم السلوك الإنساني وكنا قد وقفنا على تسميته " **الإرادة الخيرة** " والآن سنحاول الوقوف على مضمونه ومجالات توظيفه وما يحققه من نتائج .

أشار كانط أن القانون الأخلاقي أو ما اصطلح عليه **"الإرادة الخيرة"** التي يقر بأنها مبدأ كامن في ذواتنا وهي مرتبطة ارتبطا وثيقا بالواجب ومتحررة من كل قيود المنفعة والأنانية وما يجعلها متحررة هو أنها صادرة عن ملكة العقل الذي ينصرف للفعل دون وضع أي اعتبار للأنانية والمصلحة الإنسانية إنه العقل العملي بتعبير كانط [12] . يريد كانط هنا أن يشير لنا إلى أن ممارسة الفعل الخلقي يجب أن تصبح خاضعة للإرادة الحرة للعقل يمارسها دون الشعور بالإكراه كونها مبدأ كامن يسري على الفرد والجماعة .

انطلق كانط في تأسيسه لمفهوم الإرادة الخيرة من سؤال مفاده كي ينبغي أن يسلك الناس بغض النظر عما يفعلون ؟، ثم يجيب كانط أن لا

---

[11] إمانويل كانط ، أنطولوجيا الوجود ، مرجع سابق ، ص 416 .

[12] عثمان أمين ، رواد المثالية في الفلسفة الغربية ،دار المعارف ، الإسكندرية ، د(ط) ، 1967، ص 74 .

مبرر للسلوك الأخلاقي إلا الإرادة الخيرة فلا يوجد شيء في العالم يمكنه عده خير بدون قيود وبصفة مطلقة إلا الإرادة الخيرة أو الخلق الجيد [13] . نستطيع أن نبرر الموقف الكانطي من الإرادة الخيرة على أساس أنها الشيء الوحيد الذي يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق كونها تستمد خيرها من المقاصد التي تحققها وتستهدف الأثر الخير الكامن في ذاتها، و لا تستهدف الغايات التي تعمل من أجلها متحررة من كل منفعة ورغبات خاصة ،كما تنطلق من ماهية تتوجه نحو غايات و أهداف عامة و تصحح مبدأ السلوك، فهي الشرط الذي لا مجال للاستغناء عنه لكي يكون الإنسان متميزا بالخلق الجيد بهذا تكون الإرادة الخيرة مبدأ كامن في ذواتنا ولا مجال هنا لربط الأخلاق بالنتائج كما فعلت الفلسفات الكلاسكية وهذا ما يعطي لفلسفة كانط الأخلاقية طابع التميز والروح النقدية للفلسفات السابقة التي ربطت الفعل الأخلاقي بنتاجه ومدى تحقيقه للسعادة .

حاول كانط أن يجعل هذا المبدأ قانونا عاما يسير وينظم الفعل الخلقي وهذا ما نستشفه من خلال نصه هذا **" لا تفعل إلا بما يتفق مع المبدأ الذي تريد أن يصبح قانون عاما للطبيعة والذي بناءا عليه يمكن أن يسلك شخص أخر أيضا "**[14] . إن ما يشير إليه هنا هو الإرادة الخيرة التي جعلها متعالية عن كل منفعة أو رغبة ذاتية تطيح من قيمة الفعل الأخلاقي، وبهذا تكون الإرادة الخيرة قياسا إلى ما يجب علينا فعله وهذه النتيجة تقودنا إلى القول أن الإرادة الخيرة ملازمة لمبدأ الواجب.

---

[13] وليام كلي رايت،تاريخ الفلسفة الحديثة ، تر: محمود سيد أحمد ، تق: إمام عبد الفتاح إمام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2010 ، ص ص 279 ـ 280 .

[14] المرجع نفسه ، ص 291 .

إن الحديث عن الإرادة الخيرة يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن مبدأ الواجب و لو تساءلنا عن الشروط التي ينبغي توفرها في الإرادة لكي تكون خيرة أو صالحة، فإننا نجد أن كانط يحيلنا إلى فكرة الواجب ،و من هنا فإن الإرادة الخيرة في ذاتها هي تلك التي لا يكون لها قانون آخر إلا قانون "الواجب" . إذن هي إرادة العمل بمقتضى الواجب دون أي اعتبار آخر وهذا يؤكده قوله **" باعث الاحترام هذا ينشا بفعل العقل نفسه ، و مادام الفعل الصادر عن الواجب لا يقع تحت تأثير أي ميل باطني و عليه يمكن القول بان احترام القانون هو الباعث الأخلاقي الوحيد"**[15]. فمبدأ الواجب الكانطي لايقوم على أي نوع من العواطف أو التجارب مهما كانت داخلية أو خارجية بل يقوم على احترام قانون الواجب لذاته **" الواجب من أجل الواجب "** وهذا المبدأ لا يتخذ طابع الضغط على الإرادة بقدر ما يأخذ طابع الإلزام على شكل نظام أخلاقي لا ضرورة طبيعية بل بوصفه قانونا عقليا كليا أوليا وضروريا .

و نجد كانط يميز بين الواجب من جهة و التلقائية من جهة أخرى و أعطى مثالا توضحيا مفاده أن الإنسان الذي يحافظ على حياته لا يقوم بهذا بمقتضى الواجب حينما يكون فعله قد صدر عن تلقائية وحدها ،و إنما حينما يحافظ الإنسان على حياته حتى و إن عاف الحياة و أصبح يتمنى الموت فهنالك يكون لتمسكه قيمة أخلاقية ، و الفعل الذي يتم عن إحساس بالواجب لا يستمد قيمته الأخلاقية من الهدف الذي يرجى بلوغه من ورائه ، بل من المسلمة التي تقرر القيام به وفقا لها فهي إذن لا تتوقف على واقعية موضوع الفعل ، بل تعتمد فحسب على مبدأ الإرادة الذي حدث الفعل بمقتضاه بصرف النظر عن كل موضوعات الاشتهاء "[16] . فالفعل الذي

[15] محمود حمدي زقزوق ،مقدمة في علم الأخلاق ، دار القلم ، الكويت ، ط3 ، 1983، ص212 .

[16] تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 27 .

يكون مجرد انعكاس لميل طبيعي دفعنا إلى فعل مطابق للأخلاق لا يكون صادر عن مبدأ الواجب ، فبعض الأفراد الذين يعملون تحت تأثير نزوع طبيعي نحو التعاطف أو مشاعر وجدانية تكون أفعالهم مفتقدة لكل قيمة أخلاقية ، كونها لا تنطوي على أي قانون أخلاقي يحكمه مبدأ الواجب الذي ينبغي أي يكون أساس أي فعل أخلاقي كونه لا يتأثر بتغيرات التجربة منزه عن كل منفعة وغاية سابق عن كل تجربة حسية ليكون بهذا يقوم على مبادئ عقلية كلية شاملة .

يمكننا القول أن الأخلاق الكانطية تستلزم نوع من الحرية وهنا نستطيع أن نتساءل عن طبيعة هذه الحرية وكيف يمكن ممارستها في حدود الواجب الأخلاقي ؟

✓ **الحرية والواجب في حدود الأخلاق :**

لقد وضع كانط الحرية أمرا محوريا وضروريا في فلسفته الأخلاقية وأن الفعل الأخلاقي لا يكون كذلك إلا إذا كان حرا وما يوضح فلسفة الحرية في الأخلاق الكانطية نصه هذا " **شيئان يملآن الوجدان بإعجاب وإجلال يتجددان ويزدادان على الدوام كلما أمعن الفكر فيهما التأمل : السماء ذات النجوم من فوقي والقانون الأخلاقي في داخلي** "[17] ، أشار كانط هنا إلى مشهدين الأول تمثل في قوة تفوق قوى الطبيعة وتدبر الكون وتسير ظواهره ، والثاني الضمير الإنساني ذلك الصوت الأخلاقي الذي يملي على المرء ما ينبغي أن يفعله .

[17] امانويل كانط ، نقد العقل العملي ، تر: غانم هنا ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ،ط1 ، 2008.ص 269.

وعلى هذا الأساس بقدر ما يكون الإنسان أخلاقيا يكون عاقلا ويتمتع بالحرية وبقدر ما يكون لا أخلاقيا يكون لا عاقلا وعبدا لرغباته لان ثواب الأخلاق ليس في السعادة بل في الحرية والكرامة . [18] وعلى هذا النحو صاغ كانط فلسفة أخلاقية تقوم على الحرية لأنها تحرر الإنسان من ممارسة الفعل الأخلاقي دون ربطه بغايات ورغبات فردية خاصة وبذلك لا وجود للأخلاق في غياب الحرية كل هذه المؤشرات تقود إلى القول أن كانط سعى جاهدا إلى صياغة فلسفة أخلاقية تقوم على مبدأ عقلي كلي كوني وشامل كونه أخرجها من دائرتها الفردية والخاصة إلى ميدان كل ما هو كلي وشمولي ومنه :من السعادة الشخصية نحو سعادة عامة شاملة .

كما يضيف كانط للواجب جملة من الخصائص التي لا نقاش أن توفرها في الواجب حتى يظهر في صورته الكاملة :

- الواجب صوري محض بمعنى أنه تشريع كلي أو قاعدة شاملة لا صلة لها بتغيرات التجربة فقيمة الواجب كامنة في صميم الواجب نفسه بغض النظر عن أية منفعة أو فائدة ، و هذا يعني أن الواجب قانونا عقليا كليا أوليا ضروريا ، و تزيد قيمة الفضيلة كلما كلفتنا الكثير دون أن تعود علينا بأي كسب .
- أنه متجرد من كل غرض بمعنى أنه لا يطلب من أجل تحقيق غاية أو منفعة أو لبلوغ السعادة بل هو يطلب لذاته أي لا من أجل تحقيق المنفعة "فليست الأخلاق هي المبدأ الذي يعلمنا كيف نكون سعداء ، بل هي المبدأ الذي يعلمنا كيف نكون جديرين بالسعادة "

[18] محمد مهران رشوان ، تطور الفعل الأخلاقي في الفكر الغربي ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، د(ط) ، 1998، ص 156 .

- الواجب قانون أولي سابق على كل تصور تجريبي، و قاعدته غير مشروطة بأي شرط،فلا سبيل إلى تأسيس الواجب على شيء آخر ، ما دام الواجب هو الدعامة التي يستند إليها كل تقدير عملي و حكم خلقي"[19] . كل هذه الخصائص تحيلنا إلى القول أن الواجب الأخلاقي الكانطي له طابع مقدس مثل الذي يضفيه الكائن البشري على بعض القواعد العليا باعتبارها قوانين كونية مطلقة أقرب إلى قوانين الطبيعة وبهذا أخرج كانط مفهوم الواجب من حيز السلوكات الإنسانية ليصبح مبدأ ضروريا على شاكلة القوانين الفيزيائية وهذا ما أضفى على الفلسفة الكانطية طابع التعالي .

ومن خلال قراءة فلسفة كانط الأخلاقية نخلص إلى القول أنها كانت بطريقة وصورة مناهضة

للفلسفات التي سبقتها كونها لم تخرج من دائرة النقد وهذا ما جعلها توصف بالثورة الكوبرنيكية فما قام به كوبرنيكوس في عالم الفيزياء حين صرح بأن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض ،الشيء عينه قام به كانط عندما دعى إلى وجود أخلاق متجردة من كل تجارب وميولات ومنافع خاصة رافضا ربطها بتحقيق نتائج تفضي إلى سعادة شخصية ليكون فاتحا المجال لنزعته العقيلة التي جعل كل مفاهيمه القيمية خاضعة لها مثل **السعادة ، الإرادة الخيرة ، الحرية ، الواجب** جاهدا من خلال كل هذه المحاولات إعطاء توجه جديد للفعل الأخلاقي ، كما اعتمد على النقد آلية وأسلوبا في بناء فلسفته بصفة عامة وفلسفته الأخلاقية بصفة خاصة وهذا ما جعلها فلسفة متميزة عن الفلسفات التي سبقتها ، فضلا عن إضفائه طابع الكونية على فلسفته الأخلاقية عندما أسسها على مبدأ عقلي كلي وشامل كونه قانون ثابت يصلح

[19] محمود حمدي زقزوق ، مقدمة في علم الأخلاق ، ص 123.

لكل زمان ومكان وبهذا لا تكون الأخلاق الكانطية حقيقية إلا إذا كان الفعل الأخلاقي مبني على الشمول و العموم و الإطلاق ، فالفعل الأخلاقي الكانطي غير متقيد لا بزمان و لا مكان ، و لا برغبة أو هوى ، و هو منزه من أي منفعة أو غرض و عليه هو أراد أن تكون الأخلاق علما ، و العلم لا يكون علما إلا بقوانين عامة ، على عكس اللذة و الألم فهما يتعلقان بالإحساس و الإحساس شخصي ، هذا ما جعل البعض يجعلها محل نقد ويصفها **بالترسندنتالية** وأن الأخلاق التي أسسها لها كانط متعالية ولا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع كونه دعى فيها إلى قانون أخلاقي صالح لكل زمان ومكان وهو بالأمر الغير ممكن .

كل هذه المعطيات تقودنا إلى القول أن هذه الرؤية الجديدة في الأخلاق دعوة إلى التنوير فعندما تصبح الأخلاق مطلب يفرض علينا بالضرورة شيء هو في حكم ما ينبغي أن يكون على نحو حر يستلزم تضافر الإرادة فيتحقق شيئا يتجاوز كل ما أمكن تحقيقه .

✓ قائمة المصادر والمراجع :

أ ـ الكتب :

1 . المصادر:

- إمانويل كانط ، أنطولوجيا الوجود، تر: أحمد عبد الحليم عطية ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، د (ط) ، 2009 .
- إمانويل كانط ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، تر: محمد فتحي الشنيطي ، دار موفم للنشر، الجزائر، 1991
- امانويل كانط ، نقد العقل العملي ، تر: غانم هنا ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ،ط1 ، 2008.

2 ـ المراجع :

- محمد عبد الله الفلاحي ، نقد العقل بين الغزالي وكانط ـ دراسة تحليلة مقارنة ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1،2003 .
- ويل ديوارنت ، قصة الفلسفة ، تر : فتح الله الشعشع ، مكتبة المعارف بيروت ، ط4 ،1979 .
- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، مكتبة الدراسات الفلسفية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، د(س) .
- عثمان أمين ، رواد المثالية في الفلسفة الغربية ،دار المعارف ، الإسكندرية د(ط) ، 1967.
- وليام كلي رايت،تاريخ الفلسفة الحديثة ، تر : محمود سيد أحمد ، تق: إمام عبد الفتاح إمام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2010.
- محمود حمدي زقزوق ،مقدمة في علم الأخلاق ، دار القلم ، الكويت ، ط3 ، 1983.
- محمد مهران رشوان ، تطور الفعل الأخلاقي في الفكر الغربي ،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، د(ط) ، 1998.

ب ـ المعاجم والموسوعات :

لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، المجلد الأول ، تر : خليل أحمد خليل إش : أحمد عويدات ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط 2، 2001